Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

صور من مشاركات المغاربة و الأندلسيين في الحروب الصليبية في مصر و الشام من القرن الخامس الى التاسع الهجريين.

Pictures of the participation of Maghrebains and Andalusians in the Crusades in Egypt and the Levant from the 5th to the 9th centuries

بن خيرة أحمد ، Benkheira Ahmed
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي Université Echahid Hamma Lakhdar –Elued
الإيميل: Benkheiraahmed1@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2019-06-03 تاريخ القبول : 2019-12-14

ملخص:

لم يكن المغاربة و الاندلسيين نزلاء بلاد الشام و مصر بعيدين عن المعارك، التي خاضها العرب المسلمون ضد الصليبيين، ومسألة اشتراكهم في الحرب ضد الصليبيين، تبدو من المسائل الطبيعية، سيما وانهم كانوا في حروب شبه دائمة مع المسيحيين قبل ان تنشب الحروب الصليبية في المشرق، ومسألة مشاركة المغاربة في الحروب الصليبية لم تكن على صورة واحدة فحسب، فمنهم من قدم المال لتجهيز عدد من المقاتلين، ومنهم من عمل في تحضير الطعام للمقاتلين المسلمين و تجهيز الحمامات لهم، وتقديم المال، والتطبيب، والدعاية لصلاح الدين الايوبي، أو الديبلوماسية، وبالتالي قدم المغاربة أنصع صور التلاحم و التآزر مع إخوانهم المشارقة.

الكلمات مفتاحية :المغاربة ، الاندلسيون، المسيحيون ، الشام ، مصر ، الحروب الصليبية.

Abstract :

The Andalusians and The Maghrebains were not far from the battles fought by the Arab Muslims against the Crusaders and the question of their participation in the war against the Crusaders seemed natural ،especially since they were in semi-permanent wars with the Christians before the Crusades broke out in the East ،The question of the participation of Maghrebains in the Crusades was not only in one picture. Some of them made money to equip a number of fighters ،some of whom worked in preparing food for Muslim fighters ،equipping them with baths ، providing money ،medicine ،propaganda for Saladin or diplomacy. The Mongols The most beautiful images of solidarity and synergy with their brothers.

Keywords: The Maghrebains; The Andalusians; The Crusades; Saladin.

1. مقدمة:

كوِّن المغاربة جالية كبيرة العدد متنوعة الاختصاص توزع أفرادها تبعا لذلك عبر ارجاء بلاد الشام و مصر، وشاركوا في جميع شؤون الحياة العامة، بحيث لم يخل مكان و لا مجال منهم، وقد عبروا في كثير من الأحيان عن عمق صدقهم و تفانيهم في الأعمال التي أوكلت اليهم، ووقفوا مدافعين عن الاسلام و العروبة ابان الحملات الصليبية التي شنها الغرب المسيحي، وقد اتخذت تلك الصور من المشاركات المغاربية عدة أشكال، والملاحظ ان اندفاع المغاربة في الذود عن مصر و الشام كان من الوهلة الاولى، كما قدموا صنوف عديدة من التضحية ظلت شاهدة على مدى التآزر و التضامن بين شطري العالم الاسلامي، والسؤال المطروح ماهي صنوف تلك المشاركة المغاربية لصد عادية الصليبيين؟، و ما ميادين اسهامهم في الحروب الصليبية في مصر و بلاد الشام ؟

2. تجند المغاربة و الاندلسيين في المعارك الحربية ضد الصليبين

ان مسألة اشتراك المغاربة في الحرب وبخاصة ضد الصليبيين تبدو من المسائل غاية في الصعوبة ولا سيما أنهم كانوا في حروب شبه دائمة مع المسيحيين قبل أن تنشب الحروب الصليبية في المشرق، لكن المؤرخين لم يشيروا إلى هذا الاشتراك كموضوع خاص بمعنى لم يتحدثوا عن مجموعة معينة منهم شاركت بشكل مستقل عن الجيش الشامي، وكل ما كتبوه حول هذا الموضوع، اقتصر على ذكر حوادث فردية باستثناء واحدة سنأتي على ذكرها

في السطور التالية[1]، والتي سيظهر من خلالها، أن الأندلسيين والمغاربة، اشتركوا بمجموعات كبيرة إلى حد ما، ومشاركتهم ضد الصليبيين في الحرب ومن بعدهم التتار، لم تكن على صورة واحدة فحسب، بل قام بعضهم بتقديم المال لتجهيز عدد من المقاتلين إلى غير ذلك[2].

1.2 اسهامهم في معارك بلاد الشام صد الصليبيين :

وهناك دليل أكثر وضوحاً وأكبر أهمية على صعيد اشتراك الأندلسيين والمغاربة في الحرب ضد الصليبيين، ويتجلى هذا الدليل بالملاحظة التي دوّنها الرحالة ابن جبير الأندلسي خلال زيارته لبلاد الشام في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، ويبدو أن هذا الاشتراك، لم يكن قد اقتصر على فرد بعينه، بقدر ما كان على شكل مجموعة كبيرة العدد، الأمر الذي جعل الصليبيين يلجؤون إلى اتخاذ إجراءات مضادة للأندلسيين، تجسَّدت بفرض ضريبة عليهم دون غيرهم، وذلك جزاء اشتراكهم مع العرب المشارقة ضدهم، يقول ابن جبير عندما زار حصن تبنين: "وكان مكاناً لتمكيس القوافل.. ولا اعتراض على غيرهم، وسببها أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم، وقال الإفرنج: إن هؤلاء المغاربة، كانوا يختلفون على بلادنا، ونسالمهم ولا نرزؤهم شيئاً، فلما تعرضوا لحربنا، وتألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم". فللمغاربة في أداء هذا المكث سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنتهم[3]

ويستمر اشتراك الأندلسيين والمغاربة في الفترة، التي تلت انتهاء حكم نور الدين زنكي[4]، ويمكن القول إن أعدادهم ازدادت بشكل كبير على عهد صلاح الدين الأيوبي، فظهرت مشاركتهم على وجهين، الأول كمحاربين أساسيين، والثاني كمرافقين للجيش يقومون بتقديم الخدمات المختلفة، التي لا تقل عن غيرها في ميدان الحرب. مثال الوجه الأول، الحادثة التي ذكرها العماد الكاتب الأصفهاني حيث يظهر من خلالها قيمة الدور الذي شغله هؤلاء المغاربة على الصعيد العسكري، كمقاتلين أشداء نذروا أنفسهم لتنفيذ مهمات في غاية الخطورة، وكان تجنيد المغاربة في الجيش المملوكي تقليدا متبعا منذ احتدام الحركة الصليبية، فساهموا مساهمة فعالة في الجهاد ضد الصليبيين و في المرابطة على سواحل مصر و الشام مع عساكر نور الدين محمود بن زنكي ضد الصليبيين[5].

و يقال ان أول تدخل مغربي في هذه الحروب الصليبية يصعد إلى عام 543هـ/1148م، وهو التاريخ الذي استشهد فيه الإمام المغربي يوسف بن دوناس الفندلاوي الفاسي[6]، إلا أن ابن الأثير يذكر أن «في سنة 499هـ، ورد إلى بغداد أمير من الملثمين (أي المرابطين) ملوك المغرب قاصدا دار الخلافة، فأكرم و كان معه إنسان يقال له الفقيه من الملثمين أيضا، فوعظ الفقيه في جامع القصر، و اجتمع له العالم العظيم، وكان يعظ و متلثم، لا يظهر منه غير عينيه، و كان هذا الملثم قد حضر مع الأفضل أمير الجيوش بمصر وقعته مع الفرنج، وأبلى بلاء حسنا، وكان سبب مجيئه إلى بغداد أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الفاطميين الاعتقاد القبيح فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل أراد إصلاحهم، فلم يميلوا إليه، ولا قاربوه ... فلما ولى ابنه الأفضل، أحسن إليهم، واستعان بما قاربه منهم على حرب الفرنج، و كان الملثم من جملة من قاتل معه، فلما خاط المصريين، خاف العودة إلى بلاده، فقدم بغداد ثم عاد إلى دمشق، ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا و شهدها، فقتل في بعضها شهيدا، وكان شجاعا فتاكا مقداما »[7]، هذا النص يدل على أن العداء بين الدولتين الفاطمية و المرابطية لم يحل دون وجود بعض المتطوعين من كبار رجال المغاربة الذين شاركوا إخوانهم المشارقة في جهاد الصليبيين في الشام.

ومما يؤكد اشتراك المغاربة بالحرب مع صلاح الدين في معارك التحرير في حال غياب الإحصاءات الدقيقة، إلا أن ممدوح حسين يذكر عن صلاح الدين منجد صاحب كتاب المشرق في نظر المغاربة و الأندلسيين، إن عدد المغاربة في جيش صلاح الدين أثناء حصاره لمدينة عكا سنة 583هـ/1187م ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف [8].

إن هؤلاء المغاربة هم كالكثير من الشاميين والمصريين، الذين شاركوا بهذه الحرب من غير الجيش النظامي، الذي لم يكن يشكل كل القوة المحاربة ولا حتى النسبة العددية الأكبر،

فقد بيّن علي أحمد نقلا عن المؤرخ الإنكليزي جب، أن عدد الجند النظامي لدى جيش صلاح الدين الأيوبي في موقعة حطين، لم يكن يتجاوز الأربعة عشر ألف مقاتل[9] أما المحاربون الآخرون فكانوا متطوعة ومتصوفة مع أتباعهم، ومنهم الأندلسيون المغاربة من غير المؤهلين للحرب بشكل نظامي مرتب، وقد رزحت طرابلس تحت الاحتلال الفرنجي أكثر من 180 عام، وكان من الطبيعي أن ينقطع كل ذكر للوجود الأندلسي . المغربي فيها، فلم تطلعنا المصادر عن تلك المدة بطولها، وفي كل المصادر على كثرتها، سوى إشارة واحدة إلى استعانة الفرنج بمحاربين من الأندلس أتوا بهم بحراً للمشاركة في قتال المسلمين وحصار دمشق سنة 543 هـ/ 148 م10 إن كانت طرابلس استقبلت أحداً من أولئك المحاربين الأندلسيين. والمرجّح انهم لم يصلوا إلى مينائها، إذا امتنع كونت طرابلس ريموند الثاني (531 . 546 هـ/ 1133 . 1152 م) عن المشاركة في تلك الحملة خوفاً على عرشه[11].

وبالعودة إلى ما ذكره ابن الأثير في حوادث 543 هـ /1148م عندما حاول الصليبيون احتلال مدينة دمشق، وفي أثناء حصار الفرنج لها، اجتمع أهلها لتدارس الطرق والأساليب الناجعة خرج العسكر و الأهالي لمواجهتهم، وكان في من خرج للجهاد راجلا من الجمع الفقيه المغربي لمالكي أبو الحجاج الفقيه المغربي شيخ المالكية في دمشق، وكان طاعنا في السن، فتقدم و قاتل حتى قتل[12]، فكان ذلك الفقيه المغربي هو أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي أشدهم حماساً واستعداداً لخوض الحرب، من أجل أن تبقى دمشق عزيزة نظيفة من دنس المعتدين، وذلك على الرغم من تقدمه في السن. وقد اندفع للقتال غير عابىء بالنصيحة، التي قدمها له حاكم دمشق معين الدين أنر بعدم الاشتراك في الحرب. وكان رده رائعاً جسد من خلاله العزم والتصميم، عندما خاطب حاكم دمشق قائلاً: "قد بعت واشترى فو الله لا أقيله ولا أستقيله وتلا الآية الكريمة: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم"[13] وقد ظل يقاتل رحمه الله، حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربوة، وحمل جثمانه الطاهر إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن [14]

هذا ويعد الفندلاوي من الشخصيات المغربية، التي طار ذكرها، وخلد على صعيد مدينة دمشق، فقد ذكر الذهبي من مؤرخي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، أن قبره على عهده، كان مايزال يقصد بالزيارة والتبرك على الرغم من مضي أكثر من مائتي عام على وفاته"[15]، و يذكر ابن منقذ الشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي، و هو مغربي كذلك قد شارك في مقاومة الصليبيين في دمشق واستشهد الشيخ الحلحوني بعد قتال واستبسال[16].

وجاء في "الضوء اللامع" للسخاوي، ترجمة لواحد يعرف بالبطرني هو محمد بن إسماعيل تاج الدين ابن العماد المغربي الأصل، الدمشقي، المالكي. كان في خدمة القاضي عَلَم الدين القفصي، وعمل نقيبه، وبعد موته ولي قضاء طرابلس، ثم ناب عن القاضي المالكي. وكان عفيفاً في مباشرته، يستحضر طرفاً من الفقه. مات بالطاعون في شهر صفر سنة 833 هـ[17]. و يرد ذكر أبي بكر البَطَرني الطنجاوي، وهو بحار يقود غليوناً ومعه 475 بحار يأتمرون بأمره، وهو ابن حاكم طنجة... وتزعم السيرة أنه شارك في موقعة بحرية دارت بين الروم والملك الصالح الصالح بن أيوب، بالقرب من ميناء جنوى الإيطالي، فينتصر أبو بكر البَطَرني على الروم، ثم يدخل الميناء بفضل غرابه البحري18. وتروي السيرة عنه أخباراً كثيرة؛ ومن بين تلك الأخبار دخوله جزيرة أرواد مع السلطان الظاهر بيبرس والقبض على ملك الجزيرة المدعو جمجرين[19].

وسواء كان البَطَرني الذي شارك في فتح أرواد مع نائب طرابلس هو نفسه الذي ورد في السيرة الشعبية للظاهر بيبرس، أو غيره، فإن تواتر الروايات يدعم وجود المغاربة بطرابلس. ويقال إن قبر البطرني المغربي لا يزال موجوداً على ساحل البحر في مدينة اللاذقية[20].

وكان بطرابلس جنود من المغاربة يرابطون على ساحلها، وقد اشتركوا في الدفاع عن المدينة وتصدوا لملك قبرص بطرس دي لوزنيان بن هيو الرابع[21] عندما غزاها بآلاف الفرنج وعشرات السفن الحربية في سنة 769 هـ/ 1367م، وحين داهمها الفرنج، كان عسكرها خارج المدينة شمالي بيروت قد خرج مع الحاجب لاستقبال نائب جديد، ولم يبق بها سوى القليل من التركمان والمغاربة. ولذا تمكن الغزاة من الاستيلاء على طرابلس يوماً وليلة، حتى تكاثر أهل المدينة، ومن أتاهم من التركمان المرابطين عند عرقة22 مع قاضيها، ولحق بهم المغاربة حتى زاد جمعُهم على خمسة عشر ألفاً، ودارت معارك طاحنة في الأسواق وبين

البساتين، حتى دُحِر الغُزاة، وكان أول من استشهد اثنان من المغاربة، واثنان من التركمان، وواحد من أهل طرابلس[23].

ويتكرر ذكر المغاربة مجدداً في حوادث سنة 802 هـ/ 1400 م أثناء الفتنة التي عصفت بطرابلس بين أهلها ونائب السلطنة يونس بُلطا، إذ بادر أجد الأمراء . ويدعى ناصر الدين محمد بن بهادر المؤمني . إلى الاستيلاء على برج من أبراج طرابلس الساحلية، وهو برج الأمير الأتابك سيف الدين أيتمش البجاسي، ومعه جماعة من المغاربة، وركب من هناك البحر إلى مصر، وعاد ومعه نحو عشرة من قادة المغاربة وغيرهم. والتجأ ثانية إلى برج ايْتْمُش، وعندما ثار أهل المدينة على نائب الغيبة، فر منهم إلى ناحية حمص، فعاث الناس فساداً وكسروا أبواب القلعة ودخلوها ونهبوا ما فيها من حواصل النائب، وخرج المغاربة من البرج وشاركوا العوام في النهب، واستمروا على ذلك إلى آخر النهار حتى نودي بالأمان. ولما عاد النائب يونس بُلطا، اقتحم المدينة وقتل من أهلها 1732 إنسان[24]، وكان بين القتلى مفتيها، وقاضيها الحنفي، وقاضيها الحنبلي، وقاضي المالكية ابن شاشي وهو شهاب الدين أحمد بن إبراهيم الأذرعي المالكي[25].

وقد أسهم الأندلسيون والمغاربة في الدفاع عن الشام على وجه آخر، يختلف عن الوجوه سابقة الذكر من حيث الأسلوب، وقد تجلى هذا الوجه بالدبلوماسية الفذة، التي قدر لها أن تنجح وتثمر نتائجها في عدة مناسبات، ولكن ليس مع الصليبيين، إنما مع تيمورلنك وجيشه، كما فعل عبد الرحمن ابن خلدون، الذي تمكن بعد لقائه مع تيمورلنك من إنقاذ دمشق من المزيد من التدمير والقتل وتشريد الناس [26]، هذا المثال، يدل على مدى حرص الأندلسيين والمغاربة على الدفاع عن بلاد المشرق العربي في كل زمان ومكان مهما تعرضت للخطر وأي كان العدو، وهذا رغم حدوث خطر المغوليين بعد رحيل الصليبيين عن المنطقة بمائة عام.

إن الأندلسيين والمغاربة، لم يقفوا مكتوفي الأيدي حيال ما يجري من أحداث ومعارك، كان القصد منها السيطرة على هذه البقعة من أرض العرب والإسلام، وقد سطروا من خلال اشتراكهم بالدفاع عنها أنصع الصفحات وأنقاها، فبرهنوا بذلك على صدق انتمائهم العربي الإسلامي. فلم تقعدهم الشيخوخة أو التقدم في السن، ولم يرهبهم الموت ولا زوال المناصب الإدارية، أو فقدان الأموال، أو أي شيء من هذا القبيل، فاستحقوا بذلك كل تقدير واحترام، ويمكن القول، أنهم كانوا في أحيان كثيرة أشد اندفاعاً وحرصاً من أهل البلاد الأصليين.

2.2 مشاركتهم في معارك مصر ضد الصليبيين:

ساهمت جماعة من الأندلسيين والمغاربة كانوا من جملة المتطوعة الذين أتوا من مصر مع جيش المنصور قلاوون وأسهموا في فتح طرابلس وتحريرها من الفرنجة سنة 688 هـ/ 1289 م، ثم نزلوها واستوطنوها، وشاركوا في إعادة بناء مدينة المنصور المستحدثة بعد أن هُدمَت المدينة الساحلية القديمة. وتركوا طابعهم واضحاً على عمارتها المدنية والدينية[27].

وقد انفرد النُوَيْرِيّ السَّكَنْدَري دون غيره من المؤرخين بذكر الرئيس البطرني المغربي قاضي طرابلس، ومشاركته في جهاد الفرنج، حين خرج مع نائب السلطة بها أسندمر الكُرجي لحصار جزيرة أرواد سنة 702 هـ/ 1302 م. وكان الفرنجة قد اتخذوها قاعدة لمواصلة اعتداءاتهم على سواحل الشام، والتعرض للسفن التجارية في البحر، واعتنى صاحب قبرس بها وبعمارتها مع جماعة من قادة الفرنج، وبنوا فيها سوراً تحصنوا به، وأسموها عكا الصغيرة، وتم فتح الجزيرة بعد قتال لم يدُم سوى ساعة واحدة[28].

3. مرافقة الجيش و تقديم الخدمات له

1.3 في مجال التطبيب:

لم يقتصر دور المغاربة على المشاركة في المعارك الحربية فقط بل شمل ما هو أعظم و ابلغ كإشارة إلى هذا الدور في مجال التعاون و التكامل على أكثر من صعيد و من ذلك تلك الخدمات الجليلة، التي قدمها أطباء أندلسيون لصلاح الدين وجيشه وشعب الشام، الذي وقف صفا واحدا متراصا ضد الصليبيين. فمنذ النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بدأ الأطباء الأندلسيون المشاهير يتوافدون إلى دمشق[29] بعد أن سمعوا بمحاولات الصليبيين احتلالها، وكأنهم كانوا يشعرون أن من واجبهم وهم من بلاد اعتاد أهلها محاربة الصليبيين باستمرار، المساعدة في الدفاع عن دمشق وغيرها من بلاد الشام. من هؤلاء الأطباء أبو الحكم تاج الحكماء عبد الله بن المظفر

الباهلي المولود بمدينة المرية في جنوب الأندلس أو بمدينة مرسية في شرق الأندلس سنة 486هـ/1076م، وقد درس الطب بالأندلس وبمصر، حتى اشتهر به كطبيب معروف. وفي بداية أمره توجه إلى بغداد، وفيها شغل طبيب البيمارستان[30]، الذي كانت تحمل عقاقيره وأدواته في المعسكر السلطاني على أربعين جملاً"[31].

ولما سمع بتهديد الصليبيين لدمشق غادر بغداد، وأقام بدمشق، يداوي الناس بدكان عند باب جيرون بالقرب من المسجد الأموي الكبير حتى وفاته في سنة 549هـ/1155م"[32]، وكذلك فعل ابنه أبو المجد محمد بن عبد الله الباهلي الملقب بأفضل الدولة[33]، وتفوق على والده، فصار في علوم الطب من أحذق أطباء زمانه، الأمر الذي جعل نور الدين زنكي يعتمده كمسؤول أول عن إدارة البيمارستان، الذي أنشأه في دمشق خلال السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وقد أدى خلال حياته، التي انتهت في الربع الثالث من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بسنوات قليلة، خدمات رائعة في ميدان الطب، فقد كان عمله اليومي مقسماً إلى ثلاث فترات، خصص الأولى لزيارة مرضى البيمارستان سابق الذكر، وخصص الثانية لزيارة مرضى القلعة من الحكام وأتباعهم، وخصص الثالثة للتدريس في إيوان البيمارستان النوري"[34]، كما قام الطبيب الأندلسي عمر بن علي البذوخ القلعي المتوفى بدمشق سنة 579هـ/1181م[35] بممارسة المداواة العامة، واختلف عن بقية زملائه من الأندلسيين بتصنيع الدواء وتحضيره بنفسه[36].

ومن هؤلاء، الأطباء أيضاً عبد المنعم الجلياني ولد سنة 531 هـ ومات بدمشق سنة 603 هـ .، هو أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الغساني الأندلسي نسبة إلى جليانة على مقربة من غرناطة في جنوب شرق الأندلس المتوفى، اشتغل منذ وقت مبكر في ميدان الطب كان علامة زمانه في صناعة الطب والكحل (طب العيون والأدب، وتفوق فيهما بشكل ملحوظ، رحل إلى المغرب ومنها إلى بغداد، حيث اطلع على خزائن الكتب الطبية الفنية، ولما سمع بما يحدث في الشام من حرب ضد الأعداء الصليبيين، ترك بغداد متوجهاً إلى دمشق، حيث عمل طبيباً رئيساً في البيمارستان السلطاني في السفر والحضر أيام صلاح الدين الأيوبي خدم صلاح الدين الأيوبي فترة طويلة من الزمن، كان مُعظمها في ساحات الحرب والمعارك، التي دارت رحاها بين المسلمين والفرنجة على أرض فلسطين في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهو يشبه في عمله هذا إلى حد كبير رئيس المجموعة الطبية، التي ترافق في العادة أية فرقة أو قطعة من الجيش في أيامنا هذه[37]، كانت له دكان في اللبادين لصناعة الطب .وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب يرى له ويحترمه وله في صلاح الدين مدائح كثيرة، وصنف له كتباً[38].

وكان له منه الإحسان الكثير وظل هكذا حتى وافته المنية وعمر طويلاً بعد سنة ستمائة (لم يذكر في أي سنة) [39]، وقد حظي عند صلاح الدين الأيوبي طبيب أندلسي آخر، هو يحيى البياسي أمين الدين أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الأندلسي الملقب بأمين الدين بعد أن ترك الأندلس، وصل إلى مصر واستقر فيها مدة قصيرة من الزمن توجه بعدها إلى مدينة دمشق، واستقر فيها بشكل نهائي. ويُعد البياسي طبيباً أندلسياً درس الطب في بلاد الشام، حتى اشتهر وعلا ذكره، مما جعل صلاح الدين الأيوبي، يعتمده في قائمة أطبائه الرئيسين الذين شاركوا في الحملات العسكرية التي يقوم بها الجيش الصلاحي، الذين رافقوه في أثناء غيابه عن مدينة دمشق لمحاربة الصليبيين، وبقي معه مدة في البيكار ثم استعفى من ذلك، وطلب المقام بدمشق فأطلق له الملك الناصر جامكية راتباً وبقي مقيماً في دمشق، و سبب هذا الاستقرار في هذه المدينة يعود إلى وجود المستشفى النوري الكبير فيها؛ وقد اختيرت دمشق لقربها من ميدان القتال فكان جرحى ومرض الحرب يرسلون إليها بيسر، هذا وقد عجز أبو زكريا عن العمل في أواخر حياته [40].

ومنهم كذلك ابن ميمون، هو أبو عمر بن ميمون القرطبي .ولد في قرطبة سنة 529 هـ / 1134 م من عائلة يهودية، وتتلمذ في المرية على ابن رشد وابن باجة، وقرأ القرآن، وكتب اللغة والفقه المالكي وحفظ آيات من القرآن الكريم، وقيل أنه تأثر بها وأسلم عليها، كما قيل أنه أسلم مكرهاً حين آلت المرية إلى الموحدين الذين غالوا بالعصبية الإسلامية، ثم نزح إلى فاس، ومنها إلى فلسطين التي كانت بيد الصليبيين يومها، وبعدها نزح إلى مصر وتوطن في القاهرة، واحترف الطب ودخل في خدمة صلاح الدين الأيوبي وصار طبيبه وجليسه، كما صار رئيس الطائفة اليهودية بالقاهرة، وعينه الملك الأفضل طبيباً له. اشتهر بالفلسفة أكثر مما عرف بالطب، وتوفي سنة **601** هـ / 1204 م، له مؤلفات عديدة منها:

المختصرات وهي تلخيص الكتب الستة عشر لجالينوس، شرح فصول أبقراط، فصول موسى في الطب، الرسالة الأفضلية وتبحث في الحالات النفسية وتقويتها[41].

ويعد الصيدلاني ابن البيطار، الذي ألف كتاباً سماه "الجامع في الأدوية المفردة" الذي عدّه البعض من أكمل ما صنفه العرب في هذا المضمار، فقد احتوى على اسم 300 مادة دوائية جديدة كان له فضل السبق في اكتشاف العديد من المواد الدوائية، التي لم تكن معروفة في بلاد الشام ولا حتى في غيرها من البلدان، والتي لم يذكرها أحد من الصيادلة من قبل، توفي على حين غرة في سنة 646 هـ/ 1249 م بمدينة دمشق[42].

2.3 في مجال التبرع بالمال:

و قد كان للفاتح صلاح الدين الايوبي، تقدير خاص يعامل به بعضا من نخب المغاربة، ومن نماذجهم المؤرخ اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي الجياني، وهو أول من خطب على منابر العبيديين بعد نقل الدعوة إلى العباسيين [43].

وكذلك اسهم العالم الأندلسي أبو الحسن بن جميل، علي بن محمد بن جميل المعافري المالقي[44] الذي استوطن الشام و عرف هنالك بزين الدين، حسب ابن عبد الملك الذي يذكر عنه: «و لما افتتح صلاح الدين بيت المقدس 583هـ/1187م، التمس إماما يكون خطيبه و صاحب الصلاة يه، فأجمع من حضر هناك من العلماء و الأفاضل المشار إليهم، على أنه لا أحق من أبي الحسن هذا بذلك المنصب، فقدمه لذلك »[45]، وينقل عن ابن عبد الملك الأنصاري عن العماد الأصفهاني قوله في هذه المناسبة (ورتب السلطان في قبة الصخرة إماما من أحسن القراء تلاوة، و أزينهم طلاوة، و أنداهم صوتا و أسماهم في الديانة صيتا، واعرفهم بالقراءات السبع بل العشر، و أطيبهم في العرف و النشر ... ووقف عليه دارا و أرضا و بستانا [46].

قام ابن جبير الأندلسي خلال زيارته لمدينة دمشق سنة 580هـ/1185م بالدعاية لصلاح الدين الأيوبي، لما يقوم به من أعمال جليلة لتحرير ما احتل من فلسطين، ولا سيما بيت المقدس من قبل الصليبيين، الأمر الذي ساعد على استقطاب جالية أندلسية للمحاربة ضد هؤلاء الأعداء[47]، وقد احتوت كتب الحديث النبوي الشريف كما هو معروف العديد من الأحاديث[48]، التي تنوه بمكانة فلسطين ولا سيما مدينة بيت المقدس.

قام الأندلسيون والمغاربة بعد احتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين بالتذكير بهذه الأحاديث في كل مناسبة دينية وبخاصة خلال خطب أيام الجمع، الأمر الذي ولّد في النفوس شعوراً قوياً في الرغبة لزيارة بيت المقدس والمساهمة في تحريرها، وهذا الشعور كان سائداً في الأندلس والمغرب قبل ذلك، لكنه بعد الاحتلال الصليبي للقدس وبعض مدن فلسطين الأخرى، أصبح أقوى من ذي قبل، وغدت قدسيته هي الأخرى أعظم من أية فترة أخرى، وأصبحت زيارتها لا تقتصر على كسب الثواب من جراء الصلاة فيها فحسب، بل هدفت إلى جانب ذلك زيارة المشاهد الموجودة ضمنها، وتلك التي حولها في مواقع فلسطين الأخرى. وخير ما مثل حدة الشوق إلى زيارتها مسلك ابن جبير الأندلسي، الذي قال عنه المراكشي: "ولما شاع الخبر المبهج للمسلمين جميعاً حينئذ بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، وكان فتحه يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وكان ذلك من أقوى الأسباب، التي بعثته على الرحلة الثانية. فتحرك من غرناطة أيضاً يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين وخمسمائة. قال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى وزيارة المساجد الثلاثة في عام واحد..."[49].

وقام خلال ذلك بمدح صلاح الدين الأيوبي بشيء من الصدق والأمانة، وكان محقاً ومصيباً في ذلك، انطلاقاً من المهمة الجليلة، التي تصدى لتنفيذها صلاح الدين، والتي تتجلى بالسعي الحثيث الصادق من أجل رد عادية الصليبيين وتحرير ما اغتصب على أيديهم من أرض العرب والإسلام، وبخاصة مدينة بيت المقدس[50].

وكما كان الحال في زمن والزنكيين والأيوبيين، فإن الأمر لم يتبدل في زمن المماليك. فقد ظل الأندلسيون والمغاربة في مقدمة المتحمسين للدفاع عن أرض العرب في الشام ومصر وكرامتهم ضد الصليبيين وغيرهم، والأمثلة كثيرة في هذه الفترة، نذكر منها على سبيل المثال حادثة وقعت في سنة 785هـ/1383م عندما هاجم الإفرنج مدينة بيروت، فعلى أثر اتصال المسؤولين عن إدارتها مع نائب دمشق بقصد المساعدة لحمايتها والدفاع عنها،

تذرع بأنه يحتاج إلى أمر سلطاني، فقام بعض المتنفذين من المماليك بدعوة الناس للتطوع من أجل الجهاد، فكان في مقدمة الذين استجابوا لهذه الدعوة، القاضي المالكي آنذاك مع مجموعة كبيرة من الأندلسيين والمغاربة الموجودين بدمشق[51].

ومن المغاربة من ساهموا في الحياة الثقافية و نالوا تشجيع صلاح الدين عبد المنعم بن عبد الله بن حسان الغساني الأندلسي الجلياني، الأديب و الشاعر و الطبيب، الذي رحل من الأندلس، و دخل بغداد، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي و ألف له كتابي: منادح الممادح، و روضة المآثر و المفاخر في خصائص الملك الناصر سنة589هـ/1193م و يعرف الكتاب الأخير بالمدبجات و هواول ديوان المبشرلت و القدسيات للجلياني، إذ يتكلم فيه عن تاريخ تحرير مدينة القدس، ويشير اسهام هذا العالم الأندلسي إلى مدى التفاعل الثقافي بين الغرب الإسلامي و الأحداث التي جرت في القدس العربي الإسلامي، وعلى وجه الخصوص حادثة تحرير القدس من الاحتلال الصليبي التي هزت المشاعر، ودفعت بالأديب إلى التأليف و تمجيد بطولات المسلمين و لا سيما صلاح الدين الأيوبي الذي كان وراءة ملحمة القدس الشريف، وتخليدا لتلك العزيزة على قلوب المسلمين جميعا في مشرق العالم الإسلامي و مغربه [52].

هنأ أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد الله الغساني الجلياني صلاح الدين بفتح بيت المقدس، نزيل القاهرة، ومطلع قصيدته:

أبا المظفر أنت المجتبي لهدى أخرى الزمان على خبر بخبرته[53]

ويقول في افتتاح قصيدة أخرى:

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة قد اقسموا بذراع الرب تدخله [54]

و يقول في قصيدة أخرى

فكم مليك لهم شق البحار سرى لينصروا القبر، و الاقدار تخذله

و كم ترحل منهم فيلق بفلا إلى الصوامع القاه ترحله

استصرخوا الأهل، و العدوى تمزقهم و استكثروا المال، والهيجا تنقله

كم قد اعدوا، وكم قد فل جمعهم من غير ضرب و لا طعن يزيله

و إنما اسم صلاح الدين يذكر في جيش العدو، فيسبيهم تخيله

4. خاتمة:

وهكذا فقد كان للمغاربة مشاركة فعالة على أكثر من صعيد وجهة في مصر و الشام و يعكس ذلك روح النضال التي تحلوا بها الى جانب اخوانهم ذودا عن الديار الاسلامية، وقد كانت ملامح التضحية المغاربية متعددة تبعا لإمكانيات الافراد و طاقاتهم و تخصصهم، وهذا في حد ذاته ينم عن الاقبال للمدافعة عن الاسلام دينا و دولة، و لشد عضد اخوانهم في بلاد المشرق، كما ان تلك الصور من الكفاح لا تقل شأنا عن المواجه العسكرية التي تحلى بها المسلمون في بلاد المغرب سواء في الاندلس ايام ملوك الطوائف او حملات الأراغونيين على تونس او حملة لويس تاسع على تونس، و الملفت للنظر ان المغاربة كانوا على اتم الاستعداد للمجاهدة الى جانب اخوانهم في مصر و الشام والدليل هو ان العديد منهم يندمج في تلك الحروب بمجرد دخوله لبيت المقدس بغرض استكمال فريضة الحج فيصطدم بالمواجهات القائمة يدخلها دون تردد ضد العدو المشترك، وهناك دليل واضح عن الدور البارز ،فأبومدين شعيب البجائي الجزائري كانت له أدوار كبيرة وهو من فقد ذراعه في احدى المعارك ونظير ما قدمه من التضحيات منحه صلاح الدين اوقافا باسم المغاربة وهذا في حد ذاته يمثل عربون اعتراف من لدن صلاح الدين بدور المغاربة العسكري.

6. قائمة المراجع:

1 حول أسباب و مظاهر هجرة المغاربة نحو المشرق و بالتحديد إلى الشام انظر ،علي محمد ، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام ، دار طلاس ، دمشق ،ط.1، 1989 .ص ص281-321.

2 نفسه، ص302.

3 ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت: 614هـ)، رحلة ابن جبير،تح حسين نصار ،دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت، ط1، دت ،ص274.

4 نور الدين زنكى هو ابن عماد الدين زنكى أتابك الموصل ، وأهم الأمراء في العهد السلجوقي ، وقد بدأ حكمه بتثبيت استعادة الرها التي سبق وأن استعادها والده سنة 539 هـ /1144 م وحقق انتصارات كبيرة على المناوئين له ، وأظهر كفاءة كبيرة في التصدى للصليبيين وتوحيد صفوف المسلمين، وتولى الحكم وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، وكون دولة كبيرة شملت الشام ومصر وبلاد الجزيرة وتوفى سنة 569 هـ /1174 م ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 9 ، ص 124 ، ويصفه وليم الصورى أنه كان أميراً عادلاً وشجاعاً ومتزناً وتقياً ؛ وليم الصورى، المرجع السابق ، ج3، ص .243.

5 ابن جبير ، المصدر السابق ، ص201 .

6 ويلقب بأبي الحجاج المغربي، قدم الشام وسكن بلدة بانياس في محافظة القنيطرة العربية السورية مدة، ثم انتقل إلى دمشق واستوطنها ودرّس بها على مذهب الإمام مالك بن أنس، وحدَّث بكتاب الموطأ وغيره، وقد وصف بأنه شيخ حسن المفاكهة، حلو المناظرة، كريم النفس، قوي القلب، صاحب كرامات؛ ابن جبير ، المصدر السابق ، ص ص202،203

7 ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري –ت 630هـ -، الكامل في التاريخ ، تح يوسف الدقاق ط1، بيروت ، 1987، ،ج.10، ص414؛ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن كثير القرشي ت 774هـ ،البداية و النهاية ، تح عبد الله عبد المحسن التركي ، مكيبة المعارف ، ط2، بيروت ، 1411هـ/1990،ج.16 ،ص191 ؛ احمد مختار العبادى ، دور المغاربة في الحروب الصليبية في المشرق العربي ، بحوث في تاريخ الحضارة الاسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ، 1976، ص84.

8 ممدوح حسين و شاكر مصطفى ، الحروب الصليبية في شمال افريقيا ، دار عمار ، ط1، عمان ، 1988 ، ص183.

9 **Encyclopidia of Islam - vol.I.P. 797-798**

10 عمر عبد السلام تدمري ،" الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام "،مجلة التاريخ العربي ، عدد 12،خريف 1999 ص21.

11 عمر عبد السلام تدمري، لبنان من السقوط بيد الصليبيين حتى التحرير، دار الإيمان، طرابلس، 1997، ص 62.

12 ابن الأثير، المصدر السابق، ، ج9، ص 20.

13 سورة التوبة، الآية 111.

14 القلانسي (حمزة بن أسد ابن ابي يعلى ت555هـ) ، ذيل تاريخ دمشق ،تح سهيل زكار ، دار احسان ، ط1، دمشق ،1403هـ/1983، ص298 ؛ياقوت الحموي(شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت بن عبدالله ت626هـ ، معجم البلدان ،دار صادر ،بيروت ،1398هـ/1977، ج15 ،صص277-278

15 علي أحمد،" مساهمات الأندلسيين والمغاربة في الحروب الصليبية في مصر والشام"، مجلة التراث العربي، العدد 67،ماي1997، ص79.

16 ابن منقذ الاعتبار ،المصدر السابق، ص95؛ أبو شامة ، المصدر السابق ،ج.1،ص186؛علي احمد ، الأندلسيون و المغاربة ،ص304.

17 يُحتمل أن يكون البطرني المجاهد في أرواد واحداً من أجداد محمد بن إسماعيل هذا ؛ السخاوي(شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت902، "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"،دار جيل ،ط1 ، بيروت ، 1996 ، ج 7، ص 44.

18 عمر عبد السلام تدمري، نفسه،ص22.

19 نفسه ، ص23.

20 نفسه،ص23.

21 ولد في 19اكتوبر 729هـ/ 1329م لقب في بدية عمره بكونت طرابلس ووريث عرش قبرص انشأ جماعة دينية حربية عرفت بجماعة إخوان السيف ، انظم اليها فرسان من عدة أقطار أوربية ، تأثر بشكل بالغ فيليب دي ميزيير الذي تميز بالحماسة للحرب الصليبية ؛ للمزيد انظر: سهير محمد نعينع ، الحروب الصليبية المتأخرة، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، الطبعة الأولى ، مصر2002 ، ص78.

22 عمر عبد السلام تدمري، الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام، ص23.

23 السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، ص460.

24 عمر عبد السلام تدمري، المرجع السابق، ص24.

25 انظر قائمة قضاة المالكية بطرابلس في كتاب ؛ عمر عبد السلام تدمري، لبنان من السقوط بيد الصليبيين حتى التحرير ، المماليك، ص 67.

[26] علي أحمد، مساهمات الأندلسيين والمغاربة في الحروب الصليبية في مصر والشام، ص84.

[27] عمر عبد السلام تدمري، الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام،ص22.

28 المقريزي (أحمد بن علي) السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح مصطفى زيادة ،طبعة القاهرة ، 1964،ج 1، ص 928.

[29] إن أكثر من اثنين من الأطباء المغاربة والأندلسيين، توصلوا إلى رئاسة المستشفيات بمدينة دمشق، وإن أكثر من اثنين منهم عملوا أطباء معتمدين عند الحكام والسلاطين ، عمر عبد السلام تدمري، الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام، ص24.

[30] بيمارستان : لفظ فارسي مركب من بيمار ، معناها مريض ، وستان بمعنى محل و اتصل هذا المصطلح منذ العهد الأموي بالأماكن المعدة لمعالجة المرضى ،مصطفى عبد الكريم الخطيب ،معجم المصطلحات والألقاب ، مؤسسة الرسالة ،ط1،بيروت ، 1996 ،ص96.

[31] المقري (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ،تح إحسان عباس،جار صادر ، بيروت ،1988 ، ج.2 ص133؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج.3 ،تحقيق إحسان عباس ،طبعة بيروت 1970 ،ص ص124،123.

[32] المقري ، نفسه، ج2 ،ص234.

[33] شكل إطاراً مؤهلاً للقيام بعملية التدريب فكان يخصص وقتاً معيناً لهذه الغاية، على الرغم من كثرة مشاغله ، وقد تخرج على يده مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي المولد والنشأة أحد الأطباء المرموقين في البيمارستان النوري بدمشق، والذي بقي يعمل فيه حتى وافته المنية سنة 599 هـ/ 1203 م انظر ، بن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج2، ص 190.

[34] علي أحمد، مساهمات الأندلسيين والمغاربة في الحروب الصليبية في مصر والشام، ص82.

[35] نفسه، ص82.

[36] نفسه ، ص83.

[37] علي أحمد ،" بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري"، مجلة التاريخ العربي ،جمعية المؤرخين المغاربة ، العدد 15،صيف 2000،ص39.

[38] وألف له كتابي: منادح الممادح، وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر، سنة**589** هـ/1193م. ويعرف الكتاب الأخير بالمدبجات، وهو أول ديوان المبشرات والقدسيات للجلياني المذكور، ويدور حول تاريخ تحرير مدينة القدس. وتضم المكتبة الخالدية في القدس مخطوطتي هذين الكتابين، الموجودتين فيها منذ الفتح القدسي ، عبد الواحد ذنون طه،"القدس وعلماء الغرب الإسلام عشية الاحتلال الصليبي وفي أثناء التحرير" ، مجلة التراث العربي، دمشق العدد **87-86** ، ربيع الآخر 1423 هـ ،اوت 2002 ، ص241.

[39] علي أحمد ، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام ، ص307.

[40] علي محمد الصَّلاَّبي ، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، ص400

[41] بن شداد (بهاء الدين) ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تح الدكتور جمال الدين الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، الطبعة الأولى ، 1964 ، ص. **158**

[42] انظر عنه ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج.2، ص 133.

[43] محمد المنوني ، نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام و ما إليه ،ص144.

44 نشأ في مدينة مالقة بالأندلس ، وأخذ عن شيوخها ، ثم رحل إلى المشرق ، فأكمل علومه في مصر ، ودمشق و استقر أخيرا في المسجد الاقصى ، حيث عرف بالشيخ المالقي ، وكان زاهدا فاضلا ،خافظا للحديث ، عارفا بالقراءات ، اماما في النحو ، حسن الخط ، اشتهر بمتانة الدين ، وكمال الفضل ؛ أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسي الأنصاري المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق،إحسان بيروت، دار الثقافة، 1956 ، السفر الخامس /القسم الأول ص ص 316،315.

[45] نفسه ،ص315-316.

[46] العماد بالاصبهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تح محمد محمود صبح ، ص141-142؛ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تح جمال الدين الشيال ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ،1957 ،ج.2،ص230.

[47] انظر عن ذلك ابن جبير ، المصدر السابق ، ص270 وما بعدها.

[48] انظر جملة من هذه الأحاديث؛ مجير الدين الحنبلي - الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، تحقيق، عدنان يونس عبد المجيد نباتة ،مكتبةدنديس-عمان-1420هـ-1999م ،ج.1 ،ص211 وما بعدها.

[49] المراكشي ، الذيل والتكملة ، صص606،605 ؛ علي أحمد ، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام، ص83.

[50] المقري ، المصدر السابق ،ج.2 ،ص488.

[51] علي أحمد ، الأندلسيون و المغاربة في بلاد الشام ، ص83.

[52] عبد الواحد ذنون طه ، المرجع السابق ، ص241.

[53] أبوشامة ، المصدر السابق ،ج.2، ص58.

[54] نفسه ،ج 2، ص ص105، 106.